

أسباب عدة لانحدار أمريكا

الكاتب



جميل مطر

جميل مطر

الرئيس دونالد ترامب في تغريدته الأشهر عن احتمال تأجيل الانتخابات الرئاسية كان حريصاً على ألا يهتم باللياقات المؤسسية، مثل تحديد الجهة التي سوف تصدر قرار التأجيل. هكذا وعلى هذا المنوال، أعتقد أنه سوف يستمر في تحدي القواعد والمؤسسات، يغير في تشكيلها ما شاء أن يغير، ويدمر ما جاء من أجل تدميره. لا شيء، لا شيء على الإطلاق، طراً خلال عام أو أطول من الكتابة في هذا الموضوع دفعني لتغيير رأيي في موقفين، الأول هو ثقتي المطلقة في أن انحدار أمريكا بدأ قبل ظهور ترامب كمرشح رئاسي.

هنا أنا لا أبرئ الرجل من مسؤوليته عما أصاب أمريكا في عهده من مصائب، وما فقدته من مكانة ومصادر قوة. أما الموقف الثاني الذي تمسكت به وما أزال فهو اقتناعي الراسخ بأن الرئيس ترامب لن يتخلى بسهولة عن منصب الرئاسة فاز في الانتخابات أم خسر. اعترف أنني ربما فشلت في إقناع بعض الأصدقاء أن ترامب جزء من رسالة تبشير عنصرية، تهب على العالم مرة أخرى من الغرب. هذه الرسالة لم تصل بعد إلى كل أهدافها، إلا أنها وجدت في انتظارها في عديد محطاتها آذاناً صاغية وتنظيمات واعية مستعدة لتغيير أمريكا نحو خيارات متشددة.

لكثرة ما كتب وقيل وجودة وأصالة بعضه صار انحدار أمريكا له أدب خاص به. أسبابه ومصادره عديدة. وللحق سرعان ما يكتشف القارئ الموضوعي مبكراً أن الانحدار الأمريكي له ما يبرره، وبخاصة إن جرى التحليل ضمن السياق التاريخي. أعتقد أنها متعة من المتع الأصيلة، العودة إلى قراءة تاريخ صعود وانحدار القوى العظمى والإمبراطوريات الكبيرة. المتعة الأعظم هي في قراءة ومتابعة سياسيين من دول حملتها إلى المجد سيرتها الإمبراطورية، وألقت بها إلى سكك ودروب الانحدار حروب وأوبئة أو قصور ذاتي أو نهم التوسع، هؤلاء تراهم الآن يقفون على أبواب مدن نصف مدمرة في سوريا والعراق وليبيا يحلمون ببعث إمبراطوري بعد طول انحدار.

اندثرت في تاريخنا الحديث إمبراطوريات أوروبية، وحلت محلها إمبراطورية أمريكية، ها هي بدورها تسحب قواتها

مخلقة وراءها فوضى ودمار. المأساة تتكرر في صور شتى. عندما قرر الاستعمار الأوروبي الخروج خلف وراءه عالماً عربياً ممزقاً و«إسرائيل» وهيمنة أمريكية وراء أستان حرب باردة بين القطبين السوفييتي والأمريكي. والآن يخرج الأمريكي مخلقاً وراءه في العراق وسوريا وليبيا ومواقع أخرى دماراً وخراباً وعملاء ووسطاء في شكل دول أو ميليشيات وجيوش مرتزقة أو منظمات وأحزاب أو أفراد من حملة رايات مجد زال وعقائد فسدت أو بارت، هؤلاء وغيرهم ممن يعج بهم الشرق الأوسط يسعون الآن إلى تسهيل إقامة إمبراطوريات جديدة أو هيمنات إقليمية تحل محل الهيمنة الأمريكية وتملاً فراغاً كبيراً وفراغات عديدة صغيرة احتفظ بعضها بقوة جذب رهيبه.

كنت هناك. كنت في أمريكا في نهاية القرن العشرين، القرن الذي حظي بشرف أن يسمى بالقرن الأمريكي تسجيلاً للمكانة التي احتلتها أمريكا في نفوس مثقفي الغرب في ذلك الحين، كنت هناك، رأيته تتجمل وهي تستعد لأداء واجباتها باعتبارها الدولة الأعظم في نظام ثنائي القطبية، القطب الثاني فيه وهو الاتحاد السوفييتي، قطب غائب؛ لسقوطه ثم انفراطه بعد انحدار متسارع، أودى بحقه في مكانته القطبية. رأيت أمريكا في «لحظة القطبية الأحادية». رأيته في القمة سعيدة بما حققت على صعيد العولمة، وبالرخاء الذي حظ بها، ثقة هائلة في النفس جعلتها تدعو الصين إلى الاندماج في الاقتصاد العالمي وفقاً لقواعد وضعها الغرب وعقيدة يؤمن بها ومنظومة قيم هو مبدعها.

كنت هنا وهناك عندما توقفت أمريكا فجأة عن نشر عقيدتها أو بدأت تتراخى. رأيته عاجزة عن توفير الدافع ثم الطاقة والإمكانات اللازمة لتزويد دول بأنظمة حكم على شاكلتها، رأيته تنسحب، دخلت العراق بعد إعلان انسحابها، فهمت لماذا استحققت كل هذا الكره، تساءلت ومن معي عن مصادر كل هذا الفساد، أهو من صنع جنود أمريكا وموظفيها أم من صنع مختلط، عبقرية الغرب وعبقریات الشرق وكلاهما ساقط أو في مرحلة متقدمة من الانحدار.

في العراق كما في غيرها من دول في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية فقدت أمريكا الكثير. آلاف الضحايا في حروب كلها من دون استثناء خاسرة حتى بحساب آبار نفط منهوبة ومناجم نحاس مسلوقة وغابات منقولة، في العراق وحدها أنفقت أمريكا على التدمير والتخريب تريليونات من الدولارات، هنا وهناك وفي كل مكان تراكم لأمريكا أعداء وخصوم ومحتجون وخائبو أمل وفاقدو ثقة، وقفت ضد العالم تتحدى إجماعه على ترطيب المناخ، صار واضحاً وجلياً للعالم أن الفضل يعود للصين والهند في تقليص نسب الفقر، صار حقيقة ملموسة أن «لحظة القطبية الأحادية» لم تخط بالعالم خطوة واحدة إلى الأمام على طريق التنمية وطريق السلام وحماية حقوق الإنسان.

فشلت أمريكا عندما قادت منفردة، رأي يستحق نقاشاً مطولاً، بدأ انحدار أمريكا فوراً في أعقاب تفجير سفارتيها في كينيا وتانزانيا أو يوم سقطت بغداد أو يوم أسقط الإسلاميون البرجين في مانهاتان. رأي يستحق هو الآخر نقاشاً مطولاً. سقط سقوطاً مدوياً المبدأ القائل إن التفوق العسكري الهائل للولايات المتحدة يمنع أي دولة من الصعود لموقع تنافسها منه. رأي أحبطه صعود الصين وكوريا الشمالية. كلاهما صعد ثم واصل الصعود على الرغم من الإنفاق الهائل على القوة العسكرية الأمريكية، ويستمر التاريخ مزوداً بكل آليات التغيير، من حظ هذا الجيل أنه كان شاهداً على قصة انحدار بتفاصيلها وأفراحها وأحزانها، ظروفها لا تزال ضاغطة ومؤثرة وبعض أبطالها أحياء ومنهم الرئيس دونالد ترامب، نحسبه بطلاً من أبطال الانحدار ولكنه ليس الأهم، حتى لحظة كتابة هذه السطور